الفصل الثالث

الرواية البوليسية الجزائرية

إشكالية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

يطرح الأدب الجزائري الفرنسي اللغة إشكاليات كثيرة، مما دفع بالبعض إلى التساؤل عن"الهدف من وجود أعمال أدبية جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية بجانب الإنتاج الأدبي بالعربية، وفي إطار دراسات عربية. "[1] إلا أن هناك أطروحات كثيرة تتبنى إدماج المنتوج الأدبي باللغة الفرنسية ضمن الآداب الجزائرية، وتدعو لهذا الجمع؛ منها:"أن هذه الأعمال تكوّن وحدة مترابطة، وإن كانت تفصل بينها اللغة، فإن الروح الجزائرية الأصلية تجمعها، كما أنها نسجت تعابيرها على نفس الخلفية الثقافية الشعبية، ووحدت بين أصحابها معاناة مماثلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر. "[2]

إن انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر ونشوء جيل من الكتاب الجزائريين لا يعرفون اللغة العربية، ولا يمكنهم التعبير عن مشاعرهم إلا بلغة المستعمر، أثار معركة أدبية حول جنسية هذا الأدب:"هل يكون أدبا جزائريا أم يكون أدبا فرنسيا؟أم يكون أدبا مهجنا؟. "[3]

---

(1) – عايدة أديب بايمة ، تطور الأدب القصصي الجزائري، (1967. 192)، ترجمة: د. محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 05

(2) – المرجع السابق. ص. 05.

(3) – محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1961، ص450.

إن دراسة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية تطرح إشكالية التعبير، أو ما أطلق عليه مالك حداد"جنسية الأدب"، وهي إشكالية يصعب تحليلها في ضوء المعطيات المتوفرة، إذ تمثل نموذجا فريدا في الأقطار العربية إذا استثنينا الأقطار المغاربية.

إن الأدب الجزائري المعاصر يواجه مشكلة ليس لها نظير في بقية الأقطار العربية، "وهي مشكل التعبير، وهي في نظرنا ذات حدين:فهي قومية من جهة، وفنية من جهة أخرى. إنها قومية لأننا نعانيها على مستوى وطني، إذ إن كل مواطن يمكن أن يتساءل:بأية لغة يجب أن يكتب الأدب الجزائري؟هل بلغة الشعب التي كانت ولا تزال، وستبقى دائما لغة الضاد؟أم بلغة دخيلة فرضتها علينا الأوضاع الاستعمارية؟ولمن يكتب الأديب؟هل يكتب لأبناء قومه أم للأجانب؟هل هو إذن أدب الخاصة. "[1]

وتختلف الرؤى بشأن استعارة اللغة الفرنسية في الكتابات الأدبية، فأحمد طالب في مؤلفه:"الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة"، يرى أنه"في غمرة هذه الظروف الاستثنائية التي عاشتها الجزائر لم تفرض اللغة الفرنسية نفسها على الحياة الاجتماعية العامة فحسب، بل وصلت عن طريق التوغل والنمو والانتشار إلى الفكر والتعبير عنه كذلك، مما ساعد على خلق ظاهرة خاصة في ميدان الأدب هي وجود كتاب جزائريين يكتبون في موضوعات وطنهم ومشكلاته بلغة المستعمر". [2]

ويرى عبد الكبير الخطيبي في مؤلفه :**الرواية المغربية** أن الكاتب الجزائري إذا تعصب للكتابة بلغته"فإنه يقضي على نفسه بأن يتحدث أمام جمهور من الصم، ذلك أن الشعب غير متعلم، ولا يقرأ أي لغة والمتعلمون لا يفهمون إلا لغة المستعمر، وإذن لم يبق له إلا مخرج واحد، يقدم له على أنه مخرج طبيعي، وهو الكتابة بلغة الاستعمار. وفي هذه الحال، لا يعدو أن يغير مأزقا بآخر. "[3]

ويرى محمد الطمار أن الأدباء الناطقين بالفرنسية"يعتبرون بأن المقياس للجنسية الأدبية هو التعبير عن الذات الحقيقية، بصرف النظر عن جنسية

---

(1) – حنفي بن عيسى، الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة الثقافة، العدد: 8. 9، الجزائر 1972، ص63.

(2) – أحمد طالب، الإلزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة في الفترة ما بين:(1831-1976)ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص117.

(3) – عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، ترجمة محمد برادة، منشورات المركز الجامعي الرباط، العدد:02. سنة، 1971. ص. 131.

الأديب. "[1] وينقل عن إبراهيم غافر قوله عن الأدب الفرنسي اللغة:"إن المهم أن يؤدي الكاتب شهادته وأن يكتب باللغة التي سمحت له الظروف بأن يتعلمها وأن يعبر عن الواقع الحي في بلاده ويلتقط الصور الناطقة في أصول بيئته ومجتمعه، وأن تبقى شهادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلفها لمن بعده حتى يستمر الأديب في تأدية واجبه المقدس، وأنه ليس من العار أن يكتب الكاتب باللغة الفرنسية أو غيرها، ما دام يحسنها ويسخرها طيعة أمينة. "[2]

ويحتج الأدباء الناطقون بالفرنسية على هذا الفصل الشكلي بينهم وبين زملائهم الأدباء الناطقين بالعربية، ويؤكدون بأنهم عرب، وبأن أدبهم عربي، وعن ذلك يقول مالك حداد:"نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية. "[3] ويقول مراد بوربون:"إن اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصة للفرنسيين وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة؛ بل إن أية لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي ويعبر بها عن حقيقة ذاته القومية. "[4]

وينقل محمد طمار موقف الناطقين بالعربية في قوله:"وأما الناطقون بالعربية فيعدون الأدب الناطق بالفرنسية دخيلا، وقد نبت في ظروف تاريخية غير شرعية. ويذهب فريق آخر إلى أن هذا الأدب، لا بد أن ينقطع أصله، وأن مصيره الزوال بزوال الأسباب التي أنتجته، فما هو إلا صورة لمرحلة من مراحل التاريخ ذات محن وذكريات أليمة. "[5]

والواقع أن الرؤى تعددت حول الإجابة عن هذا الطرح:لمن يكتب هذا الأدب، الذي يعبر حقا عن أوضاع المجتمع الجزائري ومآسيه. ؟ لعله من الصعب جدا الاكتفاء بنظرة واحدة وإهمال الاتجاهات الأخرى المؤثرة في وجود ثقافة محتواها عربي، وشكلها ولغتها أجنبيان. وفي هذا الصدد يعرض الدكتور حنفي بن عيسى في دراسة نشرها بمجلة الثقافة تحت عنوان"الرواية الجزائرية المعاصرة"طرحا خطيرا يتعلق بوجود ونمو أدب جزائري باللغة الفرنسية، يقول فيه:"إن هذا الأدب مدين في نموه إلى أحزاب اليسار الفرنسية التي شجعته ورأت فيه عنصرا يستجيب لخططها وأغراضها، وذلك أن الأوروبيين لم يكونوا يعرفون الإنسان العربي إلا عن

---

(1) – محمد الطمار. تاريخ الأدب الجزائري. ص. 450.
(2) – المرجع السابق:ص. 450.
(3) – تاريخ الأدب الجزائري. ص. 450.
(4) – المرجع السابق:ص. 450.
(5) – المرجع السابق:ص. 450.

طريق الصورة التي رسمها المستشرقون. فالعربي في نظر هؤلاء هو ذلك الشخص الجامد التفكير، المتعصب في دينه، المؤمن بالقضاء والقدر، القانع بقسمته في الحياة. "[1]

نحن لا نرفض هذا الطرح جملة وتفصيلا، ولكننا في الوقت نفسه لا يمكن أن نثبته في مجال دراسة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ذلك أن العامل الذي ذكره الدكتور حنفي بن عيسى يمكن اعتباره مؤثرا خارجيا لظهور هذا الأدب ونموه، لكن هناك عوامل أخرى أثرت تأثيرا مباشرا في هذا الأدب باعتباره"ظاهرة ثقافية سوف يلتفت إليها المؤرخون حتما عندما يتصدون لدراسة المراحل التي قطعها الشعب الجزائري في كفاحه من أجل التحرر من التبعية الثقافية. "[2]

وعلى كل حال فإن الأدب الجزائري الفرنسي اللغة قد تمحورت مضامينه حول ظلم الفرنسيين وإرهابهم للوطنيين ومحاولاتهم الرامية إلى مقاومة التعريب وفرض الإدماج كما صور هذا الأدب فقر وبؤس وآلام المواطن العربي الجزائري إبان الاستعمار .

ظهر هذا الأدب بعد الحرب العالمية الثانية، وأبرز كتابه محمد الديب، مولود فرعون، مولود معمري، كاتب ياسين، مالك حداد، وآسيا جبار. وقد تأثر أغلب هؤلاء الكتاب بأحداث الاستعمار. "[3]

وخلاصة القول حول إشكالية الأدب الجزائري الفرنسي اللغة هي أن هذا الأدب أدب وطني صادق المشاعر، عكس وضعية الشعب الجزائري وصور كفاحه، "لكنه عجز عن الأداء الكامل للمشاعر العربية الإنسانية، وذلك للانفصال بين اللغة المعبرة والواقع. فإن للغة علاقة كبيرة بالعقلية وبالجانب الوجداني والانفعالي من الإنسان. "[4]

الرواية البوليسية الجزائرية:

إن البحث في الرواية الجزائرية سواء كانت باللغة العربية أو بالفرنسية، يطرح إشكالية الأدب الثوري، لأنها تعتبر مسألة مركزية في تطور الأدب العربي

---

(1) – حنفي بن عيسى، الرواية الجزائرية المعاصرة. ص63

(2) – المرجع السابق:ص. 64.

(3) – محمد الطمار. تاريخ الأدب الجزائري. ص451.

(4) – المرجع السابق. ص. 452.

المعاصر. "فالنضال العربي الذي استطاع في النصف الثاني من القرن العشرين أن يطرح من خلال ممارساته الأيديولوجية المنطلقات لفكر عربي تقدمي باتجاه بناء نظرية للثورة العربية المعاصرة، هذا النضال أخذ يطرح في الوقت نفسه مسألة إبداع أدب عربي ثوري، يواكب تحرك الجماهير العربية باتجاه أهدافها الوطنية والقومية والتقدمية، ويعزز مسيرتها في نضالها ضد التحديات التاريخية التي تواجهها هذه الأهداف. "[1]

إن ارتباط الأديب الجزائري بالواقع الراهن لأمته، وتعلقه بالتراث العربي في محاولة لإعادة بعثه، والعمل على تجديده، وتطويره، حال دون التفكير في جنس الرواية البوليسية، والذي بقي خارج الهموم الأدبية العربية، لاعتقاد بعض النقاد والباحثين–ولمدة طويلة– أنه أدب شعبي، لا يرقى إلى مصاف الآداب الجادة. والواقع أن هذه النظرة مستمدة أصلا من بعض سمات هذا الجنس، والمتميزة بطابع (التخطيطية الميكانيكية Schématisme et mécanisation) الذي تخضع له شخصيات الرواية البوليسية، "وتميز كاتب الرواية البوليسية من غيره من الكتاب في التكنيك الروائي المستخدم في بناء النص، فهو يعرف مسبقا مصير أبطاله، وأدق حركاتهم، كما أن الغموض المفتعل في زخم الأحداث، ما هو في الواقع إلا مرحلة يعمل الكاتب على اجتيازها بمجرد الكشف عن منفذ للجريمة. "[2] وتتحول الرواية بعدها إلى مجرد قصة عادية، ركبت أجزاؤها تركيبا عكسيا.

لا يتجه القصد في هذا المستوى من البحث إلى طرح سمات الرواية البوليسية، بقدر ما سيعمد إلى بحث وتقصي مظاهر الأدب البوليسي بالمواصفات الغربية في بعض الروايات الجزائرية، وهذا في ضوء ما أنجز في الفصول السابقة من هذا البحث.

إن قراءة بعض النصوص النقدية(*)–وهي قليلة جدا، وغير ناضجة في أغلب الأحيان– تدفع إلى الاعتقاد أن الأمة العربية لا يمكنها أن تنتج اليوم أدبا بوليسيا بالمواصفات الغربية، لأن الوضع الراهن لا يسمح بذلك. ويؤكد هذه المقولة أحمد حمدي في حديثه (للثورة الأفريقية) حين يقول:"أعتقد أن الآداب

---

(1) – جلال فاروق الشريف، حول مسألة إشكالية الأدب العربي الثوري، الموقف الأدبي، العدد: 104–105، كانون الأول والثاني، دمشق، 1980، ص. 7

(2)- Tahar Djaout, Une étiquette d'étagère dans le Magasin littéraire, Révolution Africaine, N° 1225, Août 1987, Alger, P. 38

* – أعني ما نشرته مجلة (الثورة الإفريقية) من مقالات حول الرواية البوليسية في الجزائر.

الحقيقية لا يمكنها إلا أن تكون ملتزمة، أن تعكس أفكار المجتمع، وتكرس لخدمته، والرواية البوليسية–من هذه الوجهة–غير ملتزمة، لأن أحداثها تعبر عن مظاهر سطحية، يمكن العثور عليها في المجتمعات كلها(. .)ولذلك لا يمكن وضعها في المستوى نفسه مع الروايات الأخرى، سواء الحديثة منها أو المعاصرة، ذلك أن الكاتب الحقيقي مبدع، ينبغي أن يوظف إنتاجه الفكري والأدبي في تطوير الإنسان، وانسجامه مع أفراد المجتمع. والرواية البوليسية لا تهدف إلا لإحداث المتعة الآنية، غير أن هذا لا يمنع من إنصافها:فهي تتميز على مستوى الشكل ببناء جيد، سهل، وتقنيات مضبوطة، يمكن استلهامها في مجال كتابة بعض القصص الهادفة. "[1] كما يؤكد في السياق نفسه "أنه لا يوجد في الوطن العربي كتّاب للرواية البوليسية، لماذا؟، لأن الأمة تواجه اليوم مشاكل جادة ومعقدة، تستوجب اهتمام الكتاب والتزامهم. "[2] ثم يعلق قائلا:" إنه لا يوجد سوى أعمال بوليسية مترجمة من الفرنسية أو الإنجليزية كروايات (أجاتا كريستي) وغيرها. "[3] إلا أن هذه العوامل لم تحل دون ظهور عدد من الروايات البوليسية في الجزائر، حيث أصدرت مؤسسة الكتاب (ENAL) والشركة الوطنية للنشر والتوزيع (SNED) في بداية السبعينيات من القرن العشرين مجموعة قصص وروايات باللغة الفرنسية ذات طابع بوليسي شعبي (Le Polar).

ويعود الفضل الأول في ظهور الرواية البوليسية ورواية التجسس إلى يوسف خضير بروايته (تحرير فدائية Délivrez la Fidaya) عام 1970، وقد ظهر له في ظرف سنتين ستة عناوين، ما بين عام 1970و 1972:[4]

1–الانتقام يمر بغزة La vengeance passe par Ghaza

2–توقيف مخطط الإرهاب Halte au plan terreur 1970

3–الجلادون يموتون أيضا Les bourreaux meurent aussi 1970

4– منع طائرة فونتوم عن تل أبيب Pas de phontom pour Tel Avive 1970

---

(1)- Ahmed Hamdi, Les écrivains ont d'autres préoccupations, Révolution Africaine, N° 1225,1987, Alger, P. 41

(2)- Ibid. P. 41

(3)- Ibid. P. 41

(4)- Chaffik Benhacen, Treize Boulevard du crime, Alger, Révolution Africaine, Op. Cit, P. 40

5–النمور تتدخل Les Panthères attaquent

صدرت هذه الروايات عن المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع في ظل ما اصطلح عليه آنئذ "باغتيال الثقافة Malaise de la culture" في غياب كتابات جادة، وهذا بعد تخلي المختصين الذين فضلوا الصمت، أو اختاروا المنفى بعيدا عن الوطن، بحثا عن أمل مفقود، في حين كان الكتاب بالفرنسية يصفون حساباتهم مع ما أطلق عليه بـ" ضمير التاريخ Conscience Historique"."[1]

من هذه الزاوية الضيقة يمكن دراسة الإسهامات المتواضعة للأدب الجزائري في تطوير الرواية البوليسية، بعيدا عن (البهرجة) والبريق اللذين عرفت بهما هذه الرواية، وما كانت تتضح به مضامينها من تدفق للخمر الممزوجة بدماء الضحايا، وما تحلت به صفحاتها من الإثارات الجنسية المكشوفة، الدالة على الخلاعة، وسقوط الأخلاق الغربية.

كما تضيف (زهيرة عوفاني) إلى هذا الرصيد في الثمانينيات مجموعة أخرى، لكنها تختلف في شكلها ومضمونها عن مجموعة يوسف خضير، فبينما تكتب عوفاني قصصا بوليسيا، يكتب يوسف خضير رواية تجسس، ويتمثل إنتاج عوفاني في عملين إبداعيين، هما:

–صورة مفقود (1985) Le portrait du disparu

–قراصنة الصحراء (1987) Les pirates du désert

تولت مؤسسة الكتاب (ENAL) نشر القصتين، مساهمة منها في تشجيع هذا النوع من الرواية . [2]

قراءة لقصتيْ:"صورة مفقود" و"قراصنة الصحراء":

أ–صورة مفقود Le portrait du disparu: يمكن تصنيف هذا العمل[3] ضمن خانة القصة القصيرة–الطويلة (Long Short story)، حيث يسير مجرى الأحداث فيها في اتجاه واحد، يميزها طابع التشويق الذي يعتبر جوهر الحبكة البوليسية، وتعرف الشخصيات (القليلة نسبيا) تحولات عميقة، ما بين بداية القصة

---

[1]- Ibid. P. 40

[2]-Saadia Ayata, Dans le tunnel, Révolution Africaine, P. 42

[3]- Zehira Houfani Berfas, Le portrait du disparu, SNED, Alger, 1985.

ونهايتها.

تكمن عناصر القصة الأساسية في العلاقة التي تربط (حسين)الزوج الكهل الغني بزوجته (فتيحة) الشابة الجميلة، وما يميز هذه العلاقة من تناقضات في الشخصيتين، نظرا لتفاوت السن من جهة، وما يضفيه جمال فتيحة من فتنة وجاذبية، خلقت لدى الكهل عقدة الإحساس بالنقص، وأيقظت في قلبه حمى الغيرة الممزوجة بروح انتقامية مجنونة.

تكشف القصة في مراحلها المتطورة عن علاقة غير شرعية تربط الزوجة (اللعوب) بمساعد حسين، ومستودع سره، ورجل أعماله، فيعمل الزوج (المخدوع) على الانتقام منه بطريقة ذكية، حيث يترقب إحدى زياراته للبيت، ويتظاهر بشرب المنوم الذي كانت تعده له زوجته، ليخلو لها الجو، ويباغت الغريمين في وضعية ارتكاب جريمة انتهاك حرمة زوج في فراشه.

يقتل الزوج غريمه، ويلبس الزوجة الخائنة جريمة القتل، "فتتحول الزوجة الذكية الماكرة إلى مخلوق ضعيف، مكسور الجناح، ويظهر الزوج المخدوع في نهاية القصة في صورة شخصية خسيسة لا تستحق سوى السجن. "[1]

وفي الجزء الثالث من القصة، تكشف الكاتبة عن عملية تحقيق بوليسية يقودها المفتش (سليمان) مع مساعد له، تحاول من خلالها استرجاع ما علق في ذاكرتها من طرق (شارلوك هولمس)، والمفتش (بوارو)، ولكنها لا تدفع بالقارئ إلى المتاهات التي كانت تقود إليها الرواية البوليسية بالمواصفات الغربية.

وتلعب الصدفة دورا إيجابيا في غلق ملف التحقيق في قضية الجريمة المرتكبة في "صورة مفقود"، حيث يعثر على قبر الضحية في حديقة البيت الفخم، ويقاد المجرم (حسين) إلى العدالة.

لاتمثل قصة "صورة مفقود" إلا محاولة أولى في الكتابة البوليسية، تتعمق هذه المحاولة في الرواية الثانية "قراصنة الصحراء"، فتأخذ التجربة منحنى آخر، يذكرنا بـ(أجاتا كريستي وكونون دويل) ولكن تبقى المسافة بعيدة من حيث التحكم في أداة **التشويق** ومغالطة القارئ، وإجباره على الاتجاه إلى الخط غير السليم، ليفاجأ في النهاية بمجرم لم ينتظره.

ب–قراصنة الصحراء Les pirates du désert: تقول الكاتبة (عوفاني) إنها استوحت أحداث الرواية القصيرة "قراصنة الصحراء" من مقال نشر بمجلة "

---

[1]-*Saadia Ayati, Op. Cit. , P. 41*

جزائر الأحداث Algérie actualité" حول موضوع التهريب عبر الحدود الجنوبية للجزائر. [1]

تجري أحداث "**قراصنة الصحراء**" بإحدى مدن ولاية (تمنراست الجنوبية) وتقع في 134 صفحة، تتعرض الكاتبة من خلال الأحداث إلى رسم صورة مفزعة ومخيفة لشبكة من العصابات، تقوم بتهريب المواد الأولية من الجزائر إلى بعض الدول الإفريقية المجاورة عبر الصحراء، وجلب بعض المواد الإلكترونية المفقودة في السوق الجزائرية، وتكشف من خلال تطور الأحداث عن تورط بعض الشخصيات الحزبية البارزة في عملية التهريب، والتي اتخذت مراكز القيادة السياسية للتمويه، والقيام بعمليات تخريبية للاقتصاد الوطني.

وقبل التعرض إلى تحليل عناصر القصة، تجدر الإشارة إلى أن الكاتبة (زهيرة عوفاني) صرحت في حديثها (لمجلة الثورة الإفريقية) "أنها لم تزر الأماكن التي تم وصفها في القصة، وأنها لا تعرف الصحراء إلا من خلال الأشرطة المعروضة على شاشة التليفزيون. "[2]

الالتزام الفني والإيديولوجي بين الإطار السياسي والأداء الفني في القصة:

تكتسي قصة "قراصنة الصحراء" بعدا سياسيا إيجابيا، إذا راعينا الفترة التي كُتبت فيها، والظروف السياسية والاقتصادية السائدة في الجزائر آنذاك، فقد كان اتجاه الثورة في البلاد يطمح إلى بناء مجتمع اشتراكي متطور، ويرسم لهذه الغاية سياسة تنموية شاملة لتحقيق الاستقلال السياسي وتدعيمه باستقلال اقتصادي متين، وذلك بالمحافظة على خيرات البلاد واستغلال ثرواتها المعدنية استغلالا حكيما، والبحث عن أسلوب واضح في التدرج لتنصيب مؤسسات قوية لبناء دولة تقوم على مبادئ التسيير الديمقراطي.

كانت القصة في معظم فصولها تهدف إلى الكشف عن هذه الأبعاد، من خلال عرض نماذج بشرية متناقضة المواقف؛ فمساعد المحافظ الوطني للحزب (لوادي) يتظاهر بشعارات الثورة، لكنه متواطئ مع عصابة التهريب، كما تعرف

---

[1]- Entretien Zehira Houfani, Propos recueillis par Saadia Ayata, Révolution Africaine, Op. Cit. , P. 42

[2]- Ibid. P. 42

بعض الشخصيات تطورا ملحوظا بين بداية الأحداث ونهايتها، وأعني بالدرجة الأولى شخصية (وحيدة) التي تقوم بأدوار أساسية ضمن العصابة وتستعيد وعيها الوطني في الفصول الأخيرة، لكن منطق الأحداث في القصة يقضي بانتهاء دورها في عالم الخيال، فتقتل في حادث مرور بينما كانت متجهة نحو المكان الذي يعتقد وجود (سالم) فيه.

إن القصة في إطارها الفني العام لا ترمي إلى تجميل طبيعة الصحراء، وتبرئة النفوس لإظهار الجمال السامي الخالي من النقائص كما هو الشأن في القصة ذات النزعة الرومانسية، بل تتجه إلى توفير الحقائق العارية المجردة بأسلوب تقريري مباشر، لكشف جريمة اقتصادية رهيبة بدأت تنخر جسم الاقتصاد الوطني، وتتسبب في ضحايا بشرية بريئة.

تكاد القيم الفنية في النص الأدبي تذوب في زخم الأحداث في القصة، وتوجهاتها السياسية والاجتماعية، ويبدو ذلك من خلال الوعي الأيديولوجي الذي يميز الشخصية المحورية:ضابط الشرطة (سالم) الذي يرمز إلى فطنة الثورة وفعاليتها، ويقظتها الدائمة إزاء ما يجري من أحداث في الوطن.

تستعير قصة "قراصنة الصحراء" أسلوب الرواية البوليسية في تعاملها مع الأحداث، وكيفية بناء اللغز، وطريقة تطور التحقيق، والوصول إلى كشف الحقيقة وإدانة المجرمين، بشكل موضوعي يقوم على الفرضية والتحليل والاستنتاج. فالضابط (سالم) يستدعى بطريق سري للتحقيق في جريمة اقتصادية، يخشى أن تتطور فتكون ذات أبعاد خطيرة على الاقتصاد الوطني وسياسة الدولة الاشتراكية، وهي نفس مقدمة الرواية البوليسية عند (أجاتا كريستي)، حيث تشمل المقدمة عادة تحديد مكان الأحداث، وقد تم ذلك فعلا في قصة "العوفاني"، حيث تجري الأحداث في مدينة (تام) وبالضبط في نزلها السياحي الكبير.

ويتعرض الفصل الأول من الرواية إلى التعريف بالمدينة، وذكر مراحل تطور عمرانها نتيجة زحف الصناعة البترولية وما سببته هذه الصناعة من كثافة في السكان، وأثر ذلك على نمط حياة أهل (تام) الأصليين وعلاقاتهم الاجتماعية، ونشاطاتهم التجارية والثقافية.

كما تتعرض إلى رسم جانب من شخصية (عمران) المحافظ الوطني الذي عين على رأس المحافظة الوطنية للولاية للإشراف على الجو الاجتماعي والسياسي للجهة، والذي لاحظ ما آل إليه الوضع نتيجة عمليات التزوير والتخريب

والتهريب، وقد تأكد من خطورة الوضع عندما كانت العمليات تنتهي كلها بمقتل أحد أفراد الشرطة أو رجال الجمارك. وعلى الرغم من ذلك كانت تبدو الجرائم المرتكبة لغزا مغلقا في محاضر جهاز الأمن بالمدينة، وهذا نتيجة تواطؤ السكان مع رجال العصابة نظرا للضغوط المفروضة عليهم من جهات معينة، ورغم السرية التي أحيط بها مقدم الضابط (سالم) إلا أن العصابة احتفلت بقدومه بطريقتها الخاصة، حيث وضعت غرفته الخاصة بالفندق تحت الرقابة السمعية، واستخدمت أشخاصا مموهين لإشعاره بخطورة الموقف، ودعوته إلى العدول عن مهمته الخاصة.

ويطغى على أسلوب القص طابع الكتابة بصيغة الغائب (Troisième personne) باعتبار أن الكاتبة محيطة علما بكل شيء، وهو أسلوب فني مكنها من تتبع شريط الأحداث وفقا للفرضيات المطروحة، والظروف المحيطة بالتحقيق. فالكاتبة حاضرة في تسلسل الأحداث، قريبة من الشخصيات، فهي تحكي النص من وجهة نظر (العالم المحيط بكل شيء)، وهو نهج روائي سهّل إقحام الطابع الإيديولوجي في بناء الأحداث.

تتحول الرواية البوليسية في الأدب الجزائري من طابعها الصناعي الميكانيكي إلى الطابع الفني الملتزم بقضايا وأخلاق الأمة، فالحبكة البوليسية واضحة، وقوانين اللعبة محكمة، إلا أن الجديد هو التحول نحو تبني القضايا الجادة باستخدام وسائل بوليسية من تحقيق، ومباحث، ومطاردة، وقتل. . الخ.

أشرت في بداية هذا الفصل عرضا إلى إشكالية المضمون الثوري المطروحة على الإنتاج الأدبي في ميدان القصة القصيرة والرواية، وأرى أنه طرح إيجابي إذا راعينا الظروف السياسية والثقافية التي سادت البلاد أثناء الثورة التحريرية، وبعد الاستقلال، وما يطمح الأدب الجزائري إلى تحقيقه بعد أشكال الهيمنة والتسلط المفروضة على رجال الفكر والأدب من قبل السلطات الفرنسية في عهد الاحتلال.

وهناك أكثر من عشرة عناوين أخرى ساهمت كلها في إثراء سجل الرواية البوليسية الفرنسية اللغة بالجزائر. وأكبر الظن أن العوامل التي ساعدت على ميلاد هذا الجنس وانتشاره ببلادنا تعود إلى :

–العامل الأول: إمكانية الإفلات من الرقابة المفروضة على الرواية الواقعية الجادة، باعتبارها ملتزمة وهادفة، وتحظى الرواية البوليسية الشعبية بخاصية فريدة

من نوعها، إذ كان بإمكانها التعبير بصراحة وبشفافية، (وقول ما لا يقال) في الوقت الذي كان الروائي والمفكر الملتزم لا يحلم بالتفكير في تلك القضايا ولو سرا. . دون أن يتعرض للمساءلة والتحقيق، نظرا للمراقبة المفروضة على الإنتاج الفكري والأدبي. [1]

– العامل الثاني: وجود جمهور فرنكفوني شغوف بقراءة الرواية البوليسية، لما تتميز به من خصائص فنية تتمثل في مزج الخصائص التقنية الغربية للرواية البوليسية بالشخصية العربية الفكهة، كما هو الحال عند (جمال ذيب) في استحضاره لشخصية تراثية عربية (المفتش عنترة) كبطل لرواياته كلها، وهي على التوالي:

– بعث عنترة (1986) Résurrection d'Antar

– ساغا الجن (1987) La Saga de Jins

– أرخبيل ستلاق L'Archipel du Stalag

كما ساهم (سليم عيسى) وأكبر الظن أنه اسم مستعار لأديب فضل الكتابة في السرية، بروايتين، هما:

– ميمونة Mimouna

– عادل يعرقل Adel se mêle

كما صدرت لـ(عبد العزيز عمراني) روايتان شبيهتان بروايات (يوسف خضير)، تتناولان موضوع الصراع العربي–الصهيوني، وهما:

– هجوم مضاد Contre attaque

– مصيدة من أجل تل أبيب Piège pour Tel Aviv

ويلاحظ أن الرواية الثانية أعيد طبعها عام 1983، وهناك عناوين أخرى لم نتعرض لها، يمكن أن تخصص لها دراسة مستقلة.

وخلاصة القول:إن الرواية البوليسية الجزائرية الفرنسية اللغة، لا يمكن مقارنتها بأعمال (د. هاميت) و(شندلر) أو (أجاتا كريستي) ولكن يمكن اعتبارها محاولات أولية واعدة، إذا أحسن استثمارها من خلال القراءات النقدية الجادة

---

[1]-*Littérature policière, Le roman noir d'Alger la blanche, Le Nouvel Afrique Asie , N° :4, Alger,1990, P. 59*

والمعمقة، وتم نقلها إلى العربية لتكون حافزا للكتاب الشباب للاتجاه بهذا الجنس الأدبي إلى غاية نبيلة، وذلك من خلال استغلال فنيات الرواية البوليسية وأسلوبها البسيط لإمتاع جمهور القراء وتعليمهم، في زمن فقد فيه الناس متعة القراءة، نظرا لتأثير وسائل الإعلام السمعية البصرية، وانتشار شبكات الانترنيت، وانعكاساتها السلبية–أحيانا– على الكتاب.

***